في آلاء الله

في سورة النور — ٢ —

للعلامة الاستاذ الشيخ طنطاوي جوهري

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » الآية .

اعتاد الناس أن يعرفوا عظمة هذه الدنيا بالنظر فى السموات والأرض . والقرآن ملفح بذلك . الله أكبر . جل العلم ! فهل لك أن أحدثك حديثاً جميلا عجيباً فى هذه الدنيا التى نعيش فيها تطبيقاً على هذه الآية ؟ ومن هذا الحديث يتجلى لك أن العلم الحديث أظهر أن جميع ذرات هذه العوالم تفسير هذه الآية ، وأن هذه الدنيا كلها نور خلقه الله ، وأن هذا العالم كله نور ، وأننا نعيش فى وسط النور ، وأن ما نراه من حيوان ونبات وسماء وأرض وحجر ومدر . كل هذا ماهو إلا نور متجمد كما يجمد الماء فيصير ثلجاً . فهذه العوالم التى شرحتها الأمم كلها وذكر مجملها القرآن تدخل فى هذه الآية .

هاك مايقوله العالم (هنشو) الذى كتب فى « مجلة هاربر الأمريكية » فى سنة ١٩٢٦ ونشر فى مجلات أخرى ماملخصه :

« إن بعض قطرات الماء قد يكون قطرها ثلث سنتمتر ، واخذ يكبره تقديراً مراراً حتى أوصل قطره إلى ١٥ سنتمتراً ومتى صارت هكذا أصبحت كثيرة الارتجاف وظهرت عليها ألوان قوس قزح ، وإذا كبرناها حتى صار قطرها ١٧٠ متراً زال ظهور قوس قزح ولا نرى فيها إلا الماء ، وإذا كبرنا قطر نقطة الماء فصار مائة ميل فحينئذ تظهر جواهر الماء الصغيرة ويكون كل جوهر صغير من الماء قد صار مثل الجوزة حجما وقياس قطره سنتيمان ونصف ، ومعنى هذا أن جوهر الماء المذكور لايمكن قسمته إلى قسمين كل منهما ماء . بل لا يمكن إلا تحليله إلى العناصر التى تركب منها ، فهذا هو الجوهر المائى فى حده الأدنى الذى لا يقبل القسمة إلى قسمين مائيين ، بل يحلل إلى عناصره الأصلية التى لا تسمى ماء ، وهما الأكسوجين

والأدروجين ، وهذا الجوهر المائى الذى كبرناه وقلنا إنه لايقسم ، إذا أمسكناه فرضاً وجدناه أشبه بالحجر صلابة لاتحاد الأكسوجين بالأدروجين اتحاداً قوياً لايمكن انفصاله إلا بأعمال كيمائية لا محل لذكرها ، ولكن هذا الجوهر المذكور يجب علينا أن نعرف مافيه لأن العلم لاحد له وشوق النفس لا نهاية له — وفوق كل ذى علم عليم — فحينئذ تكبر النقطة مرة رابعة فتجعل قطرها مائة ألف ميل فيصير قطر كل جوهر مائى من النقطة المذكورة أكثر من أربعين قدماً بعد أن كان سنتين ونصفاً ، ولكن هذا التكبير لا يفيدنا إلا أمراً واحداً وهو أننا نرى كل جوهر مائى مؤلفاً من ثلاثة جواهر :

أحدها هو الأكسوجين فى الوسط ، وآخران واحد عن يمينه وواحد عن يساره وهما من الأدروجين ، وهذه الثلاثة جواهر فردة أى أنها لاتنقسم ، ومعنى أنها لاتنقسم أنها إذا حلت لاتكون أجزاءها أكسوجيناً وإيدروجيناً بل أشياء أخرى ، وهذه الجواهر أشبه بخلاء ومساقات لامادة فيها ، وجوهر الأكسوجين الذى فى الوسط عبارة عن قنديل فى المركز تحيط به ست دوائر تبعد عنه عشرين قدماً ، وهذه الدوائر هى سطحه والجوهران اللذان من الهيدروجين حوله ، ماهما إلا دائرتان من النور قطر كل منهما سبعة أقدام تدوران حول مركز النور .

إذن نحن الآن عرفنا الجوهر المائى أولا ، ولما كبرناه وجدناه مركباً من أشياء ليست ماء ، ولكنها أشياء أخرى فى علم الكيمياء يحلل الماء إليها فى جميع المدارس فى العالم ، وتكون عبارة عن مواد أشبه بالهواء ، وهذا معلوم ولكن النفس لاتزال تريد الزيادة فى العلم ، وحينئذ علينا أن نعرف ماهذا الأكسجين وماهذا الأدرجين بعد أن عرفنا نقطة الماء وعرفنا أجزاء كل جوهر منها .

إذن نكبر نقطة الماء المذكورة مرة خامسة ألف مرة أخرى فتصير أكبر من فلك الأرض حول الشمس ، وحينئذ يصير قطر الجوهر المائى — الذى حدثناك عنه وقلنا أنه مركب من الجواهر الثلاثة الفردة — ثمانية أميال . فماذا ترى إذن ؟ ترى أن الدوائر التى حدثناك عنها فى الأكسجين والأدروجين ماهى إلا خطوط وهمية من النور ترسمها نقطة صغيرة من النور تدور حول مركزها فى الثانية الواحدة ستة آلاف مليون دورة ، وهذه النقطة الدائرة هى (الكهرباء السالبة) ومركزها النورى يسمونه (الكهرباء الموجبة) وهذه الدوائر التى رسمتها النقطة فى الأكسوجين والأدروجين ماهى إلا كالدوائر التى ترسمها شعلة تحركها نحن بسرعة فترسم دائرة بحسب نظرنا وفى الواقع لاشىء سوى الشعلة ، وبهذا البيان عرفنا أن الجوهر المائى رجع إلى أكسوجين وأدروجين ، وهذان الجوهران الفردان رجع كل منهما إلى نقطتين من النور ، نقطة يسمونها (سالبة) تدور حول أخرى تكون أكثر من واحدة ، وتكون الدوائر على مقدار تعداد النقط الدائرة .

إذن الأمر واضح ، لا موجود إلا النور ، والأكسوجين والأدروجين فقط من النور لا غير ، وبالدوران السريع صار كل منهما غازاً ، وبالاتحاد بينهما صار ماء ، والحقيقة واضحة ما ذلك كله إلا نور .

بقي علينا عدد الجواهر المائية التي في النقطة الواحدة من الماء .

يقول العلامة (هنشو) :

إن في النقطة من الماء عدد (خمس) وأمامه عشرون صفراً ، أي خمسمائة ألف ألف ألف ألف ألف ألف ألف جوهر مائي ؛ وهذا العدد العظيم من النقط المائية ليس منسجماً . كلا . ولا مصمتاً . فهناك أبعاد شاسعة كائنة بين الكواكب والشمس والأرض بالنسبة لأحجامها ، فإذا ألصق بعضها ببعض لم تملأ إلا جزءاً من مائة ألف ألف ألف ألف جزء من النقطة . إذن قطرة الماء المذكورة عبارة عن نقط من النور وهذه يدور بعضها على بعض ، وبشدة السرعة ترى مواد غازية وهذه باتحادها تكون ماء . وهناك فضاء بينها بحيث تكون النقط بالنسبة للفضاء أشبه بالنجوم في مداراتها مع البعد الشاسع بينها كالذي بين الأرض والشمس . وليس هذا خاصاً بالماء وأجزائه . كلا . بل جميع الأجسام من جبل ونبات وحيوان أنوار ، أو كهرباء متحركة في شكل عناصر متعددة قد بلغ عددها (٩٢) في وقتنا الحاضر مركبات من نقط النور المذكورة .

إذن جميع عالمنا نور ، وأي قطرة من الماء أو أي قطعة من حديد أو حجر أو طين ما هي إلا نقط من النور تدور في فضاء ترسم دوائر من النور . . فقطرة الماء — مثلا — أشبه بالمشكاة ، وهكذا كل قطعة في المادة ودوائر الأنوار الحادثة داخلها بسرعة جرى النقط النورية في عناصرها أشبه بزجاج المصباح ، والمصباح أشبه بالنقط النورية التي في مركز كل من الأكسوجين والأدروجين فيما تقدم ، وهكذا بقية العناصر . فهنا ظهرت المشكاة والزجاجة والمصباح وبقي ما يوقد منه المصباح فجعله يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية .. الخ وهذا هو الذي غاب عن الناس الآن . نعم إن وصف شجرة الزيتونة بأنها لا شرقية ولا غربية ربما يفيد أنها ليست من عالمنا الأرضي ، بل من العالم الأعلى الذي لا ندركه . اللهم إن قطرة من الماء أصبحت نوراً وقطعة من الحجر أصبحت نوراً ، وهذا النور ما أشرق إلا من نورك ولا ظهر إلا من جمالك ، ولكنك أريته لنا غير نور ، فقد حبستنا في حواسنا فرأت الجمال غير جمال ، ولا سبيل لنا إلا أن ندرس جمالك الظاهر في عالم الطبيعة الذي حجبنا عنك ؛ ولعلنا إذا فارقناه نرجع لعالم النور ونشاهد جمال وجهك المحتجب عنا وسناء كمالك وبهائك الذي توارى بحجاب الحسن وتكون في « مقعد صدق عند مليك مقتدر » فنشاهد تلك المناظر الحسنة البهجة .

إذن هذا العالم ما هو إلا نور مترا كم ؛ وجمال احتجب ، وسعادة اختفت ولا سبيل إلى السعادة إلا بأدراك الحقائق وذلك بالعلوم .

الكناية والتعريض

فى القرآن الكريم

للاستاذ السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

الكناية — لقد كثرت الكناية فى القرآن الكريم وتنوعت أغراضها، وكان من أكثرها دورانا فيه الكناية عن الألفاظ التى لا يحسن النطق بها، وسنعبر نحن هنا عنها عن سبيل الكناية أيضاً. فمن ذلك أنه كنى عن قضاء الحاجة بأكل الطعام، وعن التبول بالمجىء من الغائط وهو المطمئن من الأرض فى قوله: «كانا يأكلان الطعام» وقوله: «أو جاء أحد منكم من الغائط» وكنى عن المأتى الخاص فى المرأة بالحرث فى قوله: «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم» وكان إذا كثرت الكناية عن الشىء الواحد لا يجمد على لفظ معين يستعمله كلما أراده، بل يستخدم عدة ألفاظ تؤدى بمواضع ذلك الاستخدام، ومن هذا أنه كنى عن المخالطة الجنسية بالملامسة والمباشرة والافضاء والدخول والغشيان والرفث والمراودة وغيرها مما نطقت به الآيات على ماهو معروف...

ولم يقف بالكناية عند حد الألفاظ القبيحة، فكان كثيرا ما يغادر اللفظ مع عدم قبحه إلى ماهو أجمل منه مجاراة للعرف والعادة، ومن ذلك أنه حاد عن ذكر أسماء النساء إلى الكناية عنها، لأن العرب كانت لا تذكر من أسماء نسائها سوى أسماء الإماء فلم يرد فيه ذكر امرأة باسمها إلا مريم لنسبة عيسى إليها، بل إن لفظ النساء نفسه لم يك يذكره صريحاً إذا كان المراد المتعة كما فى قوله: «وفرش مرفوعة» فقد قيل إنه كناية عن النساء بدليل قوله تعالى: «إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عرباً أترابا» وكما فى قوله: «وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها» فقد قيل إن المراد بالأرض الثانية النساء أيضا

والكناية فى القرآن أغراض غير ما تقدم، منها قصد المبالغة للتبشيع كما فى قوله: «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه» أو لبيان القوة نحو: «وتودون أن غير ذات

الشوكة تكون لكم » أو الضعف نحو : « أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » ومنها التنبيه على عظم القدرة كما فى قوله : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة » أو على حقيقة المصير كما فى قوله : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ؛ سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » فقد اختار هذه الكنية لأبى لهب وكنى عن امرأته بحالة الحطب إشارة إلى أن مصيرها النار ذات اللهب ، فالألفاظ متعاشقة متناسبة وقد رسخ الكناية فى قوله «حالة الحطب» بقوله« فى جيدها حبل من مسد» والسورة على قصرها ذات قوة متينة وإعجاز شديد ، ثم هى ذات انطباق تام على ما نزلت من أجله ، فقد كان سبب نزولها أن أبا لهب وهو عبد العزى بن عبد المطلب لما سمع قول رسول الله وقد جمع الناس على الصفا فى صدق دعوته قال له : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ ثم كانت امرأته وهى أم جميل بنت حرب تمشى بين الناس بالوقيعة ، والعرب تكنى عن هذا بحمل الحطب لأنه وسيلة إلى إيقاد النار . ومنها التمكين من التعبير عن الدقيق كما فى قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » فأنه ليس هناك أدق من أن يكنى عن أول بدو النور بالخيط الأبيض . وقد يكون الغرض من الكناية الإيجاز فى التعبير كما فى قوله تعالى : « فأن لم تفعلوا ولن تفعلوا » أى فأن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله . وهو كثير جداً فى القرآن .

التعريض : هذا ومما يعد قسيما للكناية التعريض ، وهو كثير فى القرآن أيضاً ، وله أغراض كما للكناية أغراض . وأهم أغراضه الذم والتنقيص إما بالإهانة والتوبيخ كما فى قوله تعالى : « وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت» فأنه تعريض بسؤال قاتلها لإهانته وتوبيخه وكما فى قوله : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون» فأنه تعريض بالكفار فى إنكارهم الرجعة والمعاد ، وإما بالسخرية والاستهزاء كما فى قوله على لسان قوم نوح له : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » وإما بالتوضيع والتحقير كما فى قوله : « قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم إن كانوا ينطقون» فهو تعريض بآلهتهم على جهة التوضيع والتحقير للعجز البادى عليها فى عدم النطق والقعود عن الدفاع . ولقد أتى القرآن بهذا العجز بينا على سبيل التصريح فى آية جعل الآلهة فيها أدنأ مرتبة وأقل قدرة من الذباب هى قوله سبحانه : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » .

على أن التعريض قد يأتى للذم خالصا كما فى قوله تعالى : «إنما يتذكر أولو الألباب» وقوله «إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون» وهو كثير جداً فى القرآن ..

وهناك أغراض أخرى له أتت فى القرآن أيضاً ، منها استدراج الخصم بمخاطبة غيره كقوله تعالى لرسوله : «لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين» فأنه تعريض بالكفار لاستحالة الاشراك عليه صلى الله عليه وسلم . ومنها التلطف فى المحاورة كما فى قوله على لسان رسوله : «ومالى لا أعبد الذى فطرنى» أى ومالكم بدليل قوله بعد : «وإليه ترجعون» وقد يصل التلطف إلى أن يكون مجرد لفت نظر، كما فى قوله تعالى على لسان الملكين لداود وقد تسورا المحراب فقال أحدهما عن الآخر : (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب) إلى آخر القصة ، فأنها تعريض به عليه السلام لما جال فى خاطره من ضم امرأة (أوريا) الواحدة إلى نسائه التسع والتسعين بتطليقه إياها أو بعد وفاته عنها ، وقد فطن لهذا التعريض بعد حكمه بظلم السائل « فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب » وقبل الله استغفاره بقوله : « فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » .

هذا ومما ينبغى ذكره هنا صلاحية كثير من آى القرآن لاستخدامها على سبيل التعريض وإن لم تكن واردة لذلك أصلا ، وأمثلة هذا كثيرة ، منها ما روى من أن أبا العيناء سئل عن ابنى وهب الحسن وسليمان أيهما أفضل فقال : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » سليمان أفضل فقيل له : وكيف ؟ فقال : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم » .

ظمأ الروح

تغيمُ ينضى معانى الحياة ... فأمشى على دُجية من نهاى
وأبصر كلا رويداً سواى ... فأظمأ فوق عباب المياه
ألا — إنها وقدةٌ بالفؤاد ... تمشى بجسومها ضوء روحى
فيكثر همى وتُنكى جروحى ... وألقى الحياة بقلب جماد

« كفر الزيات » محمد الصاوى عمار

هداية القرآن الكريم

للدكتور يحيى أحمد الدرديري

القرآن الكريم هو كتاب الله العزيز الذي وضعه للبشر كافة لهدايتهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وهو عهد الله على نفسه الذي أوضح فيه سبل الرشاد وطرق الحكمة والسداد ، وأن من سلكها انتصر وفاز بالحظوة النفسية والدنيوية وكان في الآخرة مع الناجين الأخيار . قال الله عز وجل : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه » والدين الذي أمر بإقامته هو دين الإسلام الذي لايقبل الله سواه . قال الله تعالى: « إن الدين عند الله الإسلام » وقال عز وجل « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » وإقامته تفتقر إلى شرائعه والتفقه فيها لايستقيم إلا بعد المعرفة بوجوبها ولا طريق إلى المعرفة بوجوبها إلا بعد المعرفة بالله تعالى على ماهو عليه من صفات ذاته وأفعاله أو مايقوم مقام المعرفة من الأدلة والتصديق على القول بأن أول الواجبات الإيمان والامتثال لأمره ؛ والإيمان بملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بكل ماجاء به القرآن الكريم . قال تعالى : آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالو سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

(الطريق إلى معرفة أحكام شرائع الله عز وجل)

أحكام شرائع الدين تدرك من أربعة أوجه :

أولا : كتاب الله عز وجل الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وهو يسمى القرآن قال تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا »

والقرآن يسمى الكتاب أيضا فهو كتاب الله لعباده ليهديهم طريقه المستقيم ويبين لهم مايلزمهم لمعاشهم ومعادهم قال تعالى (تلك آيات الكتاب الحكيم . هدى ورحمة للمحسنين) ويسمى القرآن بالذكر لأنه يذكر الانسان بأوامر ربه وبما يجب أن يفعله أو يتركه لصلاح

حاله وحال من معه ليسعد فى دنياه وآخرته. قال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)

ثانيا : سنة نبيه عليه الصلاة والسلام الذى قرن الله تعالى طاعته بطاعته وأمرنا باتباع سنته فقال عز وجل : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول »

ثالثا : الإجماع الذى دل تعالى على صحته بقوله : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » لأنه عز وجل توعد باتباع غير سبيل المؤمنين فكان ذلك أمرا واجبا باتباع سبيلهم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتجتمع أمتى على ضلالة »

رابعا : الاستنباط وهو القياس على هذه الأصول الثلاثة التى هى الكتاب والسنة والإجماع ، لأن الله تعالى جعل المستنبط من ذلك علما وأوجب الحكم به فرضا فقال تعالى: « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » والقياس هو ما أنزل الله عليه وأمره بالحكم به حيث يقول : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله »

لو أن المسلمين اعتصموا بآية من القرآن تتلى فى كل صلاة وهى « إياك نعبد وإياك نستعين » بالإخلاص له فى العبادة دون الأشراك به والاعتماد على غيره، والاستعانة به دون سواه والسير على حسب سننه وقوانينه العادلة، لما أصابهم الذل والهوان فى مشارق الأرض ومغاربها .

ذكر الأستاذ العلامة ابن القيم أن سر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين (إياك نعبد وإياك نستعين) وعليها مدار العبودية والتوحيد ، حتى قيل أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة جمع معانيها فى التوراة والإنجيل والقرآن . وجمع معانى هذه الكتب الثلاثة فى القرآن وجمع معانى القرآن فى الفاتحة . ومعانى الفاتحة فى (إياك نعبد وإياك نستعين) وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده فنصفها له تعالى وهو (إياك نعبد) ونصفها لعبده وهو (إياك نستعين)

فسر الأستاذ الأمام المرحوم الشيخ محمد عبده أن للعبادة صورا كثيرة فى كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهى الأعلى الذى هو روح العبادة وسرها . ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر فى تقويم أخلاق القائم بها . وتهذيب نفسه ، والأثر إنما يكون من ذلك الروح والشعور الذى هو منشأ التعظيم والخضوع . فأذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة ، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسانا .

قال الأستاذ الأمام فى معنى (إياك نستعين): أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة فى الدنيا والآخرة (أحدهما) أن نعمل الأعمال النافعة . ونجتهد

فى إتقانها ما استطعنا . لأن طلب المعونة لايكون إلا على عمل يذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه . أو يخشى أن لاينجح فيه فيطلب المعونة على إتمامه وكماله . فمن وقع من يده القلم عن المكتب لايطلب المعونة من أحد على إمساكه ، ومن وقع تحت عبء ثقيل يعجز على النهوض به وحده يطلب المعونة من غيره على رفعه ولكن بعد استفراغ القوة فى الاستقلال به . وهذا الأمر هو مرقاة السعادة الدنيوية . وركن من أركان السعادة الأخروية .

وثانيهما ما أفاد الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك . وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص الذى يرفع نفوس معتنقيه ويخلصهم من رق الأغيار . ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين والشيوخ الدجالين . ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين من الأحياء والميتين . فيكون المؤمن مع الناس حراً خالصاً . وسيداً كريماً . ومع الله عبداً خاضعاً .

(ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيما) والاستعانة بهذا المعنى ترادف التوكل على الله وتحل محله وهو كمال التوحيد والعبادة الخالصة . ولذلك جمع القرآن بينهما فى مثل قوله تعالى : « ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه » إن لفظ الاستعانة يشعر بأن يطلب العبد من الرب تعالى العون على شىء له فيه كسب ليعينه على القيام به . وفى هذا تكريم للانسان يجعل عمله أصلا فى كل ما يحتاج إليه لاتمام تربية نفسه وتزكيتها . وإرشاد له لأن ترك العمل والكسب ليس من سنة الفطرة ولا من هدى الشريعة . فمن تركه كان كسولا مذموماً . لامتوكلا محمودا . ويتذكيره من جهة أخرى لكيلا يغتر فيتوهم أنه مستغن بكسبه عن عناية ربه . فيكون من الهالكين فى عاقبة أمره

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه وأقربهم إليه فقال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح فأنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وفى الحديث الآخر « إنما أنا عبد آكل كما تأكل العبيد . وأجلس كما تجلس العبيد »

والعبودية من لوازم المؤمن لاتنفك عنه حتى الموت . قال الله تعالى لرسوله صلوات الله عليه : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وقال أهل النار « وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين » واليقين هنا الموت بأجماع أهل التفسير فلا تنقطع العبودية عن العبد ما دام فى هذه الحياة الدنيا ، ومن ظن أنه يصل إلى مقام يسقط عنه التعبد فهو زنديق كافر بالله

ورسوله . وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله والانسلاخ من دينه . وكلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم والواجب عليها منها أكثر من الواجب على من دونه ولهذا كان الواجب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بل على الرسل أعظم من الواجب على أممهم ، والواجب على أولى العزم أكثر من الواجب على من دونهم ، والواجب على أولى العلم أعظم على من دونهم وكل أحد بحسب مرتبته

وشرط العبودية الطاعة والانقياد لما أمر الله ورسوله مما بينه القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علماً . فقال تعالى : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم له . وشرطاً لمحبة الله لهم .

ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما . فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله . ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهو الشرك الذي لا يغفر لصاحبه البتة .

قال تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »

يجب أن تكون عبودية الله تعالى حسب ما أمر في كتابه العزيز وبينه رسوله المعصوم وليس للإنسان أن يبتدع فيها فيتعبد مثلا بترك النكاح . أو ترك أكل اللحم والفاكهة . أو الطيبات من المطاعم والملابس في الصحيح أن نفرا من أصحاب النبي صلوات الله عليه سألوا عن عبادته في السر . فقال أحدهم أما أنا فلا آكل اللحم ، وقال الآخر أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال الآخر أما أنا فلا أنام على فراش فبلغ النبي ﷺ مقالتهم فخطب وقال : ما بال أقوام يقول أحدهم أما أنا فلا آكل اللحم ويقول آخر أما أنا فلا أتزوج النساء ، ويقول الآخر أما أنا فلا أنام على فراش ، ولكني أتزوج النساء وآكل اللحم وأنا أقوم وأصوم وأفطر فمن رغب عن سنتي فليس مني

إن العبد كلما كان إلى الله أقرب كان جهاده في الله أعظم . قال الله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » وتأمل أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه فإنهم كانوا كلما ترقوا من القرب في مقام ، عظم جهادهم واجتهادهم . لا كما ظنه بعض الملاحدة المنتسبين إلى الطريق حيث قال القرب الحقيقي تنقل العبد من الأحوال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة فيريح الجسد والجوارح من كد العمل . وهؤلاء أعظم كفراً وإلحاداً حيث عطلوا العبودية وظنوا أنهم استغنوا عنها

بما حصل لهم من الخيالات الباطلة التي هي من أماني النفس وخدع الشيطان . وقد كان رسول الله صلوات الله عليه يقوم بالليل حتى تورمت قدماه فسئل في ذلك وقيل له ألم يغفر الله ذنبك ما تقدم منه وما تأخر فقال أفلا أكون عبداً شكورا !!

وقد صرح أهل الاستقامة وأئمة الطرق بكفر هؤلاء المبتدعين فأخرجوهم من الإسلام وقالوا لو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة (أي مادام قادرا عليه)

قال سيد الطائفة الجنيد : علمنا هذا مقيد بحديث رسول الله ﷺ وقال إبراهيم بن محمد النصر آبادي . أصل هذا المذهب ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع . والتمسك بالأئمة والاقتداء بالسلف . وترك ما أحدثه الآخرون . والمقام على ما سلك الأولون.

وسئل إسماعيل بن نجيد . ما الذي لا بد للعبد منه ؟ فقال ملازمة العبودية على السنة ودوام المراقبة .

قال إسماعيل بن نجيد : كان الجنيد وهو من أكبر أئمة أهل الطريق إن لم يكن أكبرهم — كان يجيء إلى السوق فيفتح حانوته فيدخله فيسبل الستر ويصلي ما شاء الله ودخل عليه ابن عطاء وهو في الورع فسلم عليه فلم يرد عليه . ثم رد عليه بعد ساعة . فقال اعذرني فإني كنت في وردي ثم حول وجهه إلى القبلة وكبر ومات رحمه الله ، وقال أبو سعيد بن الأعرابي : سمعت أبا بكر العطار يقول حضرت أبا القاسم الجنيد أنا وجماعة من أصحابنا فكان قاعدا يصلي ويفني رجليه إذا أراد أن يسجد فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجليه فثقلت عليه حركتهما وكانتا قد تورمتا فقال له بعض أصحابه . ماهذا يا أبا القاسم

فقال هذه نعم الله . الله أكبر . فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الجريري . يا أبا القاسم لو اضطجعت ؟ فقال يا أبا محمد هذا وقت يؤخذ فيه . الله أكبر . فلم يزل ذلك حاله حتى مات رحمه الله .

سئل الجنيد ما علامة الإيمان ؟ فقال : علامته طاعة من آمنت به والعمل بما يحبه ويرضاه . وترك التشاغل عنه بما ينقضي ويزول قال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » .

قال السيد حسن صديق فى تفسيره (فتح البيان فى مقاصد القرآن) إن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ويستن بسنته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه وانطقت به كتبه وأنبياؤه هو كاتخاذاليهود والنصارى الأحبار والرهبان أربابا من دون الله للقطع بأنهم لم يعبدوهم . بل أطاعوهم وحرموا ماحرموا وحللوا ماحللوا وهذا طبع المقلدين من علماء هذه الأمة وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة والتمر بالتمر والماء بالماء .

فياعباد الله ويا أتباع محمد بن عبد الله . مالكم تركتم الكتاب والسنة . بل تنادى بأبلغ نداء ونصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك وبيانه . وعرضتموها آذانا صما . وقلوبا غلفا . وأنهاما مريضة . وعقولا مبيضة . وأذهانا كليلة . وخواطر عليلة

اللهم هادى الضال مرشد التائه موضح السبيل اهدنا إلى الحق وأرشدنا إلى الصواب وأوضح لنا منهج الهداية .

الدكتور يحيى احمد الدردير ى

شكاة ! !

رحماكمو : ليس « الملـ ـم » قلبه صلب الحديد
لا ترهقوه بالصعـ ـب وتبتلوه بالقيود
صعبٌ عليه أن يرى رؤساءه تبدى الجحود
فتكت به أيامه وبحسبه الزمن العنيد

* * *

لا عدت يا عهد الألى لم يحفظوا حرم العهود
وثبوا على حرم « الملـ ـم » وثبة الطاغى الكنود
ورموا به من حالق مرمى الشباة من « الوريد »
فكأنه فى مزجر الرعـ ـيان أو مثوى العبيد !

« كفر الزيات »

محمد الصاوى عمار